

التحرير والتنوير

ووصف الشجر وهو اسم جمع شجرة وهو مؤنث المعنى ب (الأخضر) بدون تأنيث مراعاة للفظ الموصوف بخلوه عن علامة تأنيث وهذه لغة أهل نجد وأما أهل الحجاز فيقولون : شجر خضراء على اعتبار معنى الجمع وقد جاء القرآن بهما في قوله (لتأكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم) .

والمراد بالشجر هنا : شجر المرح " بفتح الميم وسكون الراء " وشجر العفار " بفتح العين المهملة وفتح الفاء " فهما شجران يقتدح بأغصانهما يؤخذ غصن من هذا وغصن من الآخر بمقدار المسواك وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرح على العفار فتندح النار يقل : يجعل العفار أعلى والمرخ أسفل وقيل العكس لأن الجوهرى وابن السيد في المخصص قالا : العفار هو الزند وهو الذكر والمرخ الأنثى وهو الزند . وقال الزمخشري في الكشاف : المرح الذكر والعفار الأنثى والنار هي سقط الزند وهو ما يخرج عند الاقتداح مشتعلا فيوضع تحته شيء قابل للالتهاب من تبين أو ثوب به زيت فتخطف فيه النار .

والمفاجأة المستفادة من (فإذا أنتم منه توقدون) دالة على عجب إلهام الله البشر لاستعمال الاقتداح بالشجر الأخضر واهتدائهم إلى خاصيته .

والإيقاد : إشعال النار يقال : أوقد ويقال : وقد بمعنى .
وجيء بالمسند فعلا مضارعا لإفادة تكرر ذلك واستمراره .

(أ وليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم [81]) عطف هذا التقرير على الاحتجاجات المتقدمة على الإنسان المعني من قوله تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) وذلك أنه لما تبين الاستدلال بخلق أشياء على إمكان خلق أمثالها ارتقي في هذه الآية إلى الاستدلال بخلق مخلوقات عظيمة على إمكان خلق ما دونها . وجيء في هذا الدليل بطريقة التقرير الذي دل عليه الاستفهام التقريرى لأن هذا الدليل لوضوحه لا يسع المقر إلا الإقرار به فإن البديهة قاضية بأن من خلق السماوات والأرض هو على خلق ناس بعد الموت أقدر .

وإنما وجه التقرير إلى نفي المقر بثبوتة على المقر إن أراد إنكارا مع تحقق أنه لا يسعه الإنكار فيكون إقراره بعد توجيه التقرير إليه على نفي المقصود شاهدا على أنه لا يستطيع إلا أن يقر وأمثال هذا الاستفهام التقريرى كثيرة .

وقرأ الجمهور ب (قادر) بالياء الموحدة وبألف بعد القاف وجر الاسم بالياء المزيدة في النفي لتأكيدة . وقرأه رويس عن يعقوب بتحتية بصيغة المضارع (يقدر) .

ولكون ذلك كذلك عقب التقرير بجواب عن المقرر بكلمة (بلى) التي هي لنقض النفي أي بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم .

وضمير (مثلهم) عائد إلى (الإنسان) في قوله (أو لم ير الإنسان) على تأويله بالناس سواء كان المراد بالإنسان في قوله (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) شخصا معيناً أم غير شخص فالمقصود هو وأمثاله من المشايخين له على اعتقاده وهم المشركون بمكة أي قادر على أن يخلق أمثالهم أي أجساداً على صورهم وشبههم لأن الأجسام المخلوقة للبعث هي أمثال الناس الذين كانوا في الدنيا مركبين من أجزائهم فإن إعادة الخلق لا يلزم أن تكون بجمع متفرق الأجسام بل يجوز كونها عن عدمها ولعل ذلك كصفات فالأموات الباقية أجسادها تبث فيها الحياة والأموات الذين تفرقت أوصالهم وتفسخت يعاد تصويرها والأجساد التي لم تبث منها باقية تعاد أجساد على صورها لتودع فيها أرواحهم ألا ترى أن جسد الإنسان يتغير على حالته عند الولادة ويكبر وتتغير ملامحه ويجدد كل يوم من الدم واللحم بقدر ما اضمحل وتبخر ولا يعتبر ذلك التغير تبديلاً لذاته فهو يحس بأنه هو هو والناس يميزونه عن غيره بسبب عدم تغير الروح . وفي آيات القرآن ما يدل على هذه الأحوال للمعاد ولذلك اختلف علماء السنة في أن البعث عن عدم أو عن تفريق كما أشار إليه سيف الدين الآمدي في أبقار الأفكار ومودعة فيها أرواحهم التي كانت تدبر أجسامهم فإن الأرواح باقية بعد فناء الأجساد .

وجملة (وهو الخلاق العليم) معترضة في آخر الكلام والواو اعتراضية أي هو يخلق خلائق كثيرة وواسع العلم بأحوالها ودقائق ترتيبها .

(إنما أمره إذا أراد أن يقول له كن فيكون [82]) E A